(٥)

رجل الفضاء والمضاء
رحلة إلى القلب
وطواف حول القالب

حديث الجمعة
٦ ذو القعدة ١٣٨٠ هـ - ٢١ أبريل ١٩٦١ م

لا إله إلا الله، لفظ تلوكه ألسنتنا، ولا تقوم به عقولنا، ولا تتزكى به نفوسنا، ولا تحيا به قلوبنا.

فإلى متى أمرنا في الله تفريط؟ وقولنا فيه تبييت، وتوحيدنا كبر، وطريقنا كفر، وأدبنا جحود، وهو معنا وفي أنفسنا لا يغيب؟!

متى نتعلم الخطأ فنتهيأ لتعلم الصواب؟!

متى نرجع إلى أنفسنا نتأملها، فندركها، فنزكيها، فنعمل بها، فنحرص عليها، فندبر لها، فنفيد مما أودع الله فينا من رسالة العقول، وما جعل لنا من نفسه من أمانة النفوس.. فنحرث أرض القلوب، ونكشف ما في قيامنا، مما نتوارث وورثنا من خفي المزايا والعيوب؟!

إلى متى تنصرف همتنا، وقدراتنا، وأموالنا، وتجمعاتنا، وتواصينا، في النظر والعمل خارج إنساننا، بعيدا عن إدراك إنسانيتنا، نفكر في الآفاق نجوبها بأجهزتنا، ولا نفكر في آفاق قلوبنا، وما هو بداخلنا من ملك الله، وملكوت الله، ونحن الأصل لما حولنا، ونحن صغير كبير كوننا، نُعَبِّد أنفسنا لأرضه وسمائه، وهو كوننا وملكنا وعبدنا؟!

إن فعل البشرية بالخروج خطوات في المحيط الجوي لهذه الأرض، أمر تافه في ذاته، قيم في حكمته، يسموه ويعلوه أن يقطع الإنسان طريقه إلى قلبه الذي لا يبعد عن رأسه إلا قبضات من يد، ولو وصل إليه متواضعا، ولهامته مطأطئا، ولبيت ربه رافعا، وبوجهه إلى قلب الأرض ساجدا. إن هذا لو أدركه الإنسان لتضاءلت أمامه من نتائجه كل أعماله في خارجه، ولأدرك أنه بداخله يستطيع أن يتحكم

في كل ما هو بخارجه، إن أراد يوما أن يذهب إلى داخله، وتفتحت له أبواب داخله فولجها، وخضعت له نفسه فعرفها، وصحا عقله فقدَّره، فذكر ربه فذكره، فكان الذاكر أمر المذكور، وكان المذكور شأن الذاكر. إن سأل الذاكر، أعطاه المذكور، وإن حضر المذكور، فنى وغنى الذاكر، وخرج من فاقته وفقره، خرج من ضعفه وذله إلى غناء مذكوره وعظمته، لقد صار العبد ربَّه، لقد دنى الرب عبده، لقد ملك العبد كونه، لقد أدرك الموجود وجوده، وشهد في مرآة معناه، من مرآة ذاته، في مرآة نفسه، من مرآة عقله، من كان من قبل هواه.. من كان لقاؤه كل ما يتمناه.. من عشقه غيبا، فتولاه شهادة.. فعرفه حقا يوم تحقق به، وعرف أنه ما أنزل عليه إلا من الحق، فصار الحق وصاره، ورضي بالحق جواره، ورضيه الحق جاره، أُووِيَ بعد قطيعة، وعرف أصله بعد يتم، وطعم من مسغبة، وعز من ذل، وغني من فقر، وهُدي من ضلالة، فحكم الأرض والسماء باسم ربه غيبا على خلقه. الساسة أياديه والخلق أوانيه.

هذا هو لكم فلِمَ تَقصرونه على من كان لكم أسوة فيه، وهو معناكم وهو فيه مأواكم؟ هذا ما أراده لكم ربكم فلِمَ تقنطونه؟ لِمَ لا تطلبونه؟ لِمَ لا تبحثونه؟ لِمَ لا تتعقبونه؟ {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم}[1].

هذا هو الإسلام.

فهل اتخذ بعضكم بعضا أربابا في الله بالله؟ هل اعتقد أحدكم في حجر فلم ينفعه اعتقاده؟ هل كره أحدكم ما هو فيه من ظلام فلم تتهيأ له أسباب مولد في النور؟ هل كره أحدكم معناه في القطيعة فجاهد.. فسهر ففكر.. فبحث.. فعمل.. فلم يتوله من تولاه من نشأته، وقبل نشأته، ليسلكه السبيل، ويعرفه الدليل، ويورده الحوض، ويُنهي له اليتم، ويُوقف مسراه في الذل، ويمحو عنه الجهل؟ أقامه كتابه.. كتاب العلم، أقرأه فقرأ، وأنساه فنسي.. أنساه ظلام ليله من نفسه، وأيقظه بفجر يومه من عقله.. أيقظه من نومه، فبعثه من موته، أحياه من جموده، حركه من ركوده، أثمره من هموده!

هل أحسن طالب طلب الله فوجد الله أضعف من أن يحقق له طلبه؟ هل صدق طالب فتخلفت قدرة القادر عن أجابته؟ هل العيب في الله، أم العيب في الناس؟

إن الله كامل، لا يعرفه إلا الكمال، ولا يعرفه إلا الكامل، وإن الله وعدكم بالكمال، وبالكامل على تكاثر بينكم، وقيام فيكم، بعبد جعله بدءا، ولم يجعله انتهاء. جعله بدءا للحقيقة والحق في الإنسان، وجعله خاتِما للإنباء والغيب من الخلق للإنسان. جعله شاهدا ومشهودا.. شاهدا بعين الله تحيط بأرض الله وبخلق الله وبعباد الله.. زويت له الأرض وجعله مشهودا يُشهد في شهوده الإنسان والبدء

للإنسان، ويشهد في شهوده الحق، ويشهد في شهوده وجه الله، الله من ورائه محيط، والله معه أقرب إليه من حبل الوريد. تعرض عليه أعمالكم فإن وجد خيرا حمد الله، وإن وجد شرا استغفر الله لكم.. ربا للناس برحمة الله للعالمين به، ملكا للناس بقدرة الله في حقائقه يدا فوق أيادي خلقه من عوالمه، يكشف للناس به فيه أمر الله في أرضه، عين أمر الله في سمائه، عين أمر الله بحضراته، عين أمر الله في كل ما نعلم، وعين أمر الله فيما لا نعلم.. يرى الله بوحدانيته ويُرى به ما يُرى من الله له، ويرى هو المؤمنين عليهم شهيد، ويرى به المؤمنون ما يرى هو وربه من أمر الله في الناس عليهم شهداء.

لا ترفع أعمال، ولا تخفى أحوال إلا في معاني الأقوال.. فالله يرى والله يأتي {وهو معكم أين ما كنتم}[٢] ومتى كنتم، وأين كنتم، وعلى أية حال كنتم، لا تخفى عليه منكم خافية.. إن الله لا يطلب لكم المذلة، ولا يريد بكم الذلة. وإن الله لا يريد بكم السوء، ولا يريد بكم الضلالة، ولا يريد بكم العذاب، ولا يريد بكم العقاب، ولا يريد معكم الحساب، ولكن الله خلقكم وأرادكم لنفسه، فهل أردتموه لأنفسكم؟ إنكم تريدون العاجلة، وتذرون الآجلة، وتنسونه في العاجلة والآجلة - وله الأولى والآخرة -. إن الله لا يُعرف في جنانه لأهل الجنان ولا يعرف في ناره لأهل النار ولا يعرف في ملكه لأهل الملك. ولكن يعرف للأحرار، يعرف في عباده لمن دخل في عباده، وقَبِل العبودية له ولعباده. فهو لا يفترق عن عباده. ولا يتعدد مع عباده. ولا يظهر إلا بعباده في السموات والأرض.

إن كان الله هو غيب أي شيء، فإن غيبه في شهادة كل شيء. فإذا كنتم فيه أشياء فأنتم ظاهر غيبكم بأشيائكم. فإذا وحدتموه بلا إله إلا الله بظاهركم من أشيائكم، كان لا إله إلا الله في غيب أشيائكم لكم تشهدونه فلا غيب عنكم.

إن الله معكم.. إن بيته إنما هو قلوبكم.. إن ملكوته إنما هو في صدوركم.. إن صلحتم فملكوت الله بين جوانحكم ذكرتم، تَخَلَّق في صدوركم ملكوته يتجه إليه في قلوبكم، تسمعون صريره، وتسمعون أزيزه، وتحسون في الله شوقه ووجيبه متخلقا من أعمالكم، فيصبح الحق هواكم، ويصبح معناه لكم معناكم.. وجوها له، وعبادا له، وخلقا له، وقياما له، ووحدانية له، وأحدية له.

هذا ما جاءكم به دين الفطرة في قديم الإنسان - كان الإنسان به ربه - وما تجدد في تجدد الإنسان - فكان الإنسان به على صورة منه -، ثم تجدد بالإسلام جديد بدء للإنسان من أول عابدين ببدء حاله في ذات بينكم رسولا إليكم من أنفسكم، استكمل في الله حاله على قديم، وبدأ بقديمه في الله حاله على جديد يستديم. وُعِد بتكاثر على مزيد.. ما ينسخ الله منه من آية من إنسان إلا يأت بخير منها له

من إنسان.. يُبعث الأكمل من معانيه في أشيائه في انتظام فتتزايد بالكمال شيئيته بأشيائه، وتتجمع فيه معنى كمالاته.

يرتقي بتدانيه، ويداني بترقيه.. كلماتٌ لله متصاعدة في بيوت مرفوعة، وكلمات لله متجددة في بيوت مبعوثة موضوعة. دواليك يبعثه الله مسفرا على رأس كل قرن، ما بدأ قرن في كل إنسان.

فماذا عرفه الناس، وكيف آمنوه، وبأي عين أبصروه، وعلى أي لون شهدوه؟ إنهم عن أنفسهم ميزوه ولكنهم ما لأنفسهم مؤمنين طلبوه. ولو طلبوه لأنفسهم من ربه ما حُرموه وفي حضرته التحقوه.. هو الذي يقوم ويتقلب في الساجدين، على دوام قيام، وعلى دوام سجود في عَدٍّ بلا تعدد.

إنه حقيقة العبد من حقيقة الرب من حقائق الله في حقائق الوجود من الحقيقة الشاملة له.. وجودا لا يسمى ولا يحاط..

إن الناس يلوكون لفظ الله، ولا قيام لمعاني هذا اللفظ في وجدانهم إلا ما نقلوا ببغاوات عن بهتان آبائهم.. إن هذا اللفظ هو لهم لمعناهم في حقيقة اسمه الله-هم. وهو لهم عين مبناهم في الخليقة علما على الخالق من الحقيقة. إن هذا اللفظ هو اسم قديمهم في أحسن تقويم، فيه منه نزلوا. وهو اسم جديدهم إلى أحسن تقويم إليه يرجعون. ما فقدوه وهم أسفل سافلين، ولكنهم وهم في تجربتهم - أسفل سافلين - لا يطلبونه ليجدوه، فإن طلبوه وجدوه، وإن وجدوه عرفوه، وإن عرفوه كسبوه، وإن كسبوه كانوه، فعرفوا أنفسهم إذ عرفوه، وشهدوها إذ شهدوه، فتواجدهم ما خلقوه، وتواجدوه ما أوجدوه.

إن رحمة الله لا تتواجد إلا في مرحوم، ولا مرحوم إلا من مات عن عزلته بموته عن نفسه، ومات عن قطيعته بموته عن جهله، ومات عن ظلامه بموت القابل للموت فيه. مات موتةً معنوية، فحيا حياة معنوية، فعرف أنه في الله وجه الله ومعنى الله.. وعرف أنه في الوجود معنى الوجود. وعرف أنه للجواد محل الجود.. وعرف أنه في الغَنِي إناء الغنى، وأنه في نفسه إناء الافتقار، وأنه في ربه سيد الدار ورب الدار.. فعرف معنى العبودية لله، فعرج مرتقاها، فوجد الدنيا والآخرة إنما هي دار لعبد من عباد في حضرة الله.. كل من في السموات والأرض آتيه.. أحصاهم وعدهم ولقائه أعدهم - فردا فيه - علموا وحدانية الله بوحدانيتهم معه.

هذا هو الإسلام.

لو قدمه من سمعوه من مؤسسه بوعي بجانب أمانة النقل لمن أرادوا أن يسمعوه ويعوه، فتلقيناه بجسده وروحه، وجاءنا بحقه من حقيقة أنفسنا به، على لسان الحامل الأمين عليه.. ما كان هذا حالنا

وما صار إلى حاضرنا إليه مآلنا. نتكلم بروح الشيطان زاعمين كتاب الرحمة واسم الرحمن، ونعلّم فتنة الفتان باسم حكمة الإنسان.. سالكين طريق الرجيم زاعمين وواهمين أن هذا هو الإحسان كل الإحسان.

الإسلام دين ودولة.

هكذا يتمشدقون وهكذا يقولون. فكيف تقوم للإسلام دولة ولم يقم بالإسلام دين؟! وكيف تقيم دولة دينا وهي بفطرتها دين جماعتها والدين للديان رب العالمين؟! {الله أعلم حيث يجعل رسالته}[٣] لا يخرج حاكم لمجتمعه رسولا، ولا حكيما، ولا أمينا، إلا بما في الحاكم صالحا أو فاسدا. فكل إناء لا ينضح إلا بما فيه.. والرسول عنوان مرسله.

فهل يعنون فقهاؤكم رسول الله أو رب رسول الله بما يقولون وبما يمكرون وبما يدعون وبما يتفيهقون ولا فقه فيما يعلمون؟ هل شهدتم لهم بالاستقامة؟ هل تجلت منهم فيكم الكرامة؟ هل نصرهم الله على القلوب القاسية؟ هل وصلوا بأقوالهم إلى الأفئدة الغافلة؟ هل استقامت علومهم مع العقول؟ هل تناسق ما يقدمون للناس مع ما بين أيدي الناس من علوم الناس عن الناس، وعن الطبيعة، وعن أنفسهم، وعن الوجود، وعن الفرد، وعن المجتمع؟ إنما هي علوم يقدمها الله للناس من فطرتهم تنبع منهم، تنبع من عقولهم وقلوبهم، أيا من كانوا، (لا شرف لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)[٤] حتى يكونوا مصابيح لأنفسهم ولغيرهم ما استيقظوا وما أدركوا والله هادي الكل، والله ذاهب بالضلالة عن الكل ما تفكروه وما تأملوه، على ما تستطيع نفوسهم، وعلى ما تقبل عقولهم، وعلى ما تجدد أمر دينهم وإيمانهم على رؤوس القرون، وذهب قيامهم وظلامهم وأحداثهم على الفطرة مع ذهاب القرون، لا على ما يرد لهم في منقولهم عن الآباء بلا وعي له أو إدراك فيه.

إن الله غني في الهدي عن نفسه عن الكتب وعن الأنبياء، فاطر السموات والأرض، عند كل من جاهد فيه بفطرته.. ما كلف الله نفسا إلا وسعها. من جاهد فيه بوسعه، إن أخطأ فله أجره، وإن أصاب فله أجران. وليستفت كل منكم قلبه، وليبدأ كل منكم من نفسه، ليبتعد عن الآخرين إلا من رأى فيهم نور الله يقبله العقل، ويسكن له القلب. فليستمع لكل متكلم، وليقبل من كل عاقل، وليحكّم عقله على ما يطيق، ولا يحكم بعقله بالقدرة الشاملة، ولا لنفسه بالنفس المستقيمة الكاملة، فلْيتهم كل ما منه وليقبل من الله كل ما منه.. والله آخذ بناصيته وبيده إلى الخير وإلى السبيل وإلى الحوض وإلى الحياة ما صدق مع نفسه. وما كان الله ليعذب من يعذب إلا بعد رسول من العقل، ورسول من الحياة، ورسول من الواقع.

هذا جاء به محمد ومن قبله، وجاء به محمد ومن بعده، ويجيء به محمد كلما كان له في الناس بعث. فلنؤمن بمحمد الحق حقا يقوم وينتشر، ولنؤمن بمحمد البعث حقيقة تبعث بين جوانحنا نترنم بها ولها (أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع)[٥].

إن محمدا هو إيانا خلقا ما تخلقنا بخلقه، وإن محمدا من ربه لنا ربا ما امتدت فينا روحه، وإن محمدا في معاينا يقوم لربه عبدا ما استكملناه لنا أسوة فألحقنا بحضرته فسعدنا بنعمته.. فليكن هذا ديننا، وليكن هذا طلبنا، ولتكن هذه طريقنا، هدانا الله وإياكم سواء السبيل.

رسالة محمد معرفا عن ربه تقوم في رسالة كل من عرَّف عنه تعريفا عن ربه. وإن لربه رسالة في التعريف عنه تقوم بكل من قامه في التعريف عنه.. فاللهم اجعلنا من عارفيه ومعرِّفيه.. اللهم اجعلنا من عارفيه به ومعرفيه بك. اللهم اجعلنا من عارفيك به عبادا لك، ومن عارفيه بك رحمة لنا منك. اللهم قوم به فيك سبيلنا، وابعث به فيك طريقنا، واجمع عليه بك قلوبنا، وألف به اللهم بيننا، ووحد فيك جمعنا، وأنزل سكينتك على قلوبنا، والسلم والسلام على أرضنا، وانصرنا بفضلك ورحمتك على أنفسنا حكاما ومحكومين، رعاة ومرعيين، مجاهدين ومتابعين، حكماء ومقلدين، هداة وسالكين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم اغفر لنا وتب علينا، وسدد فيك خطانا، وارفع الخصومة من بيننا، وألف اللهم بين قلوبنا، وأنزل السلم والسلام على أرضنا.

أضواء على الطريق

- {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تفرق بكم السبل فتفرق بكم عن سبيله}[٦].
- {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني}[٧].
- {قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا}[٨].
- {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم}[٩].
- {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}[١٠].
- {الرحمن فاسأل به خبيرا}.[١١]
- {ويوم نبعث في كل أمة شهيدا من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء}[١٢].
- {جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا}[١٣].

- {تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم}[١٤].

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة الأحزاب - ٦
٢ سورة الحديد - ٤
٣ سورة الأنعام - ١٢٤
٤ حديث شريف: "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى.". أخرجه أحمد بن حنبل
٥ جزء من النشيد الذي استقبل به أهل المدينة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.
٦ سورة الأنعام - ١٥٣
٧ سورة يوسف - ١٠٨
٨ سورة سبأ- ٤٦
٩ سورة الفتح - ٢٩
١٠ سورة آل عمران - ١١٠
١١ سورة الفرقان - ٥٩
١٢ سورة النحل - ٨٩
١٣ سورة البقرة - ١٤٣
١٤ سورة البقرة - ١٤١ سورة البقرة - ١٣٤